في مؤتمر الكتاب الأوربيين لحفظ الثقافة

خطاب أندريه جيد

نحن قليل في هذا المكان بعددنا ، كثير إذا اقتصر الأفراد منا على حب بلادهم ، وكثير كثير إذا أضمر هؤلاء الأفراد للبلاد الأخرى ضغينة وحقداً : إذا ما حدثتكم عن شعوري أيها السادة أقول بأني إنساني النزعة في الوقت الذي ما أزال فيه فرنسياً صميماً ، وأقول بأني فردي من أنصار الفردية مع الاعتقاد الراسخ بأني شيوعي صميم ، لا أجد في الشيوعية غير نصرة لفرديتي وكل تأييد ، لقد كانت رسالتي التي حملتها طوال خمسة وستين عاماً : أنه بمقدار ما تكون شخصية الانسان قوية وأصيلة فيه ، تكون خدماته للمجتمع أجل وأحسن ، وقد أضفت في السنوات الأخيرة إلى هذه الرسالة رسالة جديدة هي من الأولى بمثابة البنت للأم ، هي أن الجمعية الشيوعية تترك المجال الوسيع لكل شخصية وللخصائص التي تتميز بها كل شخصية تنمو وتزدهر على وجهها الأكمل ؛ وحسبي أن أتمثل بعبارة لأندره مالرو ساقها في مقدمة أحد الكتب وقد أصبحت مثلا يجري على كل لسان « إن الجمعية الشيوعية ترد إلى كل شخصية نتاجها الخصيب »

وأذكر اسم رابليه في هذا الكلام لأن النشاط الذي تركه في آدابنا الفرنسية الجميلة لم يتركه أديب من بعده ، ولأني أعتبره خير ممثل للأديب الفرنسي العريق ، ولربما كان فيما كتب بين معاصريه خير ممثل للعصر الذي عاش فيه ، لقد أخذت الآداب الفرنسية بعد رابليه تهمل ثورتها ، تتوخى الطريق المطمئنة المسالمة التي لا صعاب فيها ولا عراقيل ، تجنح إلى الغموض والابهام غير مكترثة بالمادة مشيحة بوجهها عنها

أعني بالآداب الفرنسية التي سميت « كلاسيكية » كل ما يدخل تحتها من كتاب وقراء ونظارة وأبطال للرواية والقصة ، أعني بأن كل هؤلاء قد كُفُوا مؤونة السعي والجد طلباً للعيش ؛ وعلى هذا الأساس كانت وظيفة الأديب أن يحدث أناساً موفورين عن أناس موفورين ، وإذا لم يكن منعماً هذا الذي يحدث عنه الأدب ، فليس من شأننا أن نعرف ذلك وليس من شأننا أن نعرف لماذا كان أكثر هؤلاء الذين يحدث عنهم أغنياء مغتبطين ؟ وعلام يستندون في جمع ثرواتهم ؟ إن الأدب لا تعنيه كل هذه الأسئلة المضنية ! فهؤلاء الأبطال يصورهم لنا راسين في مآسيه الرائعة وقد خلوا من تكاليف الحياة ليس لهم إلا أن يندفعوا مع أهوائهم مرخين العنان لقلوبهم تعشق وتحب ، ولرؤوسهم تحلم وتفكر . إن هؤلاء الأبطال لا يعيشون في غير أسطر ضمت في كتاب أو على خشبة مسرح يتقمص أفعالهم الممثلون

لست هنا في معرض دعوى أدافع بها مطالباً بحكم على هذه الآداب الكلاسيكية ، فاني من أكثر الناس حباً لها وإعجاباً بها وبكل ما هو رائع وجميل ، بل أقول إن الأدب لم يشهد منذ الأغريق الأقدمين عهداً رائعاً مثل عهد هذه الآداب . ولرب قائل يقول : إن هؤلاء الملوك والملكات وهؤلاء الأمراء والكبراء الذين لا تخلو منهم رواية مسرحية ألفت في القرن السابع عشر هم الذين ينبو عنهم ذوقنا ؛ وأكبر ظني أن ليس هناك أحد يستسيغ الحديث عن أناس نسبت اليهم أفعال حميدة وكلام مزوق معسول ، وقد جعلوا في جو من الأبهة والملك يشفعان لهم إذا لم يأت كل ما نسب إليهم مطابقاً للواقع صادراً عن ميولهم ومجرد إحساساتهم ؛ وإذا استساغ البعض حديثاً من هذا النوع فانهم لا يجدون فيه صورة منقولة عن عالم الأحياء الذي يعيشون فيه . فليس كل من يدبون على الأرض مترفين ولا أصحاب امتيازات

لعمري إن آداباً تلك سمتها لا تعبأ بغير هذا النمط من الناس ولا تهتم بغير الرؤوس والقلوب منهم ، لا يرجى لها مستقبل تأمن فيه من أن تزل قدمها فتهوي إلى أعماق البحر الذي تمشي على شطآنه

إن الآداب والفنون إذا لم تكن مرآة للحياة وصدى للحقيقة فانها أشياء مصطنعة لا تلبث أن تفقد قيمتها ، وإننا إذا استثنينا الآداب اللاتينية لا نجد آداباً أوروبية أخرى أكثر من الفرنسية إيغالاً في الخيال وتعلقاً به ، ما تزال إلى الآن تعتمد عليه اعتماداً كبيراً . إن الآداب لا تسمو ولا تقوى ولا تتجدد إلا بالمقدار الذي تستمده من الشعب الذي يعتبر بحق دعامة المجتمع وأساس بنيانه ، وما أشبه حال الأدب ببطل الأسطورة الأغريقية ذات المغزى البليغ

التى تحكى أن أنتيوس يفقد قواه وتفل عزيمته كلما ارتفعت رجلاه عن أن تمس الأرض (١)

يتساءلون عن الكاتب الذى غذى الآداب الفرنسية فى غضون القرن الثامن عشر وجدد فى حيويتها ! ليس هو فولتير ولا هو مونتسكيو على عبقريتهما وما قدماه لهذه الآداب من البدائع . إن هذا الكاتب رجل خرج من بين الرعاع لا حسب له ولا نسب : هو ديدرو وهو روسو

. . . يقول كاتب فى جريدة (الاكسيون فرانسيز) منذ عهد قريب : « إن المدنية هى الكذب ومحض الاختلاق ، وظيفتها إقامة رجل متصنع فى شؤونه متكلف فى أحواله مكان الرجل الطبيعى العادى ، شبهها شبه الرجل الذى يبرز مرتدياً ثيابه مصففاً شعره بعد أن يكون عارياً فى حجرته الخاصة » ثم يختم المقال بقوله « على المرء أن يختار بين أن يكون متمدناً لا يعرف للأخلاص معنى وبين أن يكون غير متمدن مخلص لذاته »

كلا ليس من المحتم على المدنية أن تتجرد من صفة الاخلاص ، وليس من اللازم على الانسان إذا أراد التمدن أن يكون كاذباً أفاكا ، بل إذا لم يكن للمدنية بد من شىء تتصف به وتحمل طابعه فانه الصدق . انى لست من الذين يلقون تبعة الكذب والتزييف البادين على كل مظهر من مظاهر حياتنا على عاتق الفرد ، فان الجانى هو المجتمع كلما أراد أن يخنق صوت الشعب ، وكلما حاول أن يتركه على حاله من النباوة والجهل والاستعباد ، لا يعرف ما يجيش فى فؤاده فيعبر لنا عنه ولا يدرك ما تستفيده الثقافة منه إذا جهر بما هو دائر فى خلده حائم بمخيلته

وقفت نفسى مذ كنت شاباً احترفت حرفة الكتابة على دحض الزعم القائل « قال الانسان كل ما يمكن أن يقوله وليس فى استطاعة أحد أن يقول غير ما قد قيل » وقد اتخذ هذا الزعم وطنيو ذاك العهد شعاراً لهم يتمثلون به

أليس من دواعى العجب والغبطة وقد مضى عصران كاملان على الكلمة التى كان يعتز بها لابرويير : « جئت فى الزمن الأخير » أن نرى أنفسنا أمام عالم حافل بالعجائب والغرائب لم نصل بعد إلى كثير أو قليل من أسراره ، أمام عالم يقظ فى إبان فتوته يطلع علينا كل يوم بجديد

من يقل أدب قوم فكأنه عنى بذلك خصائصهم وأحوال مجتمعهم ، لكن هذه القاعدة كثيراً ما تشذ ، وقد كثر شذوذها فى الآداب الفرنسية ، فان لدينا طائفة كبيرة من الكتاب العظام لم يحظوا فى حياتهم بعطف الجمهور وتقديره ، فيقال بأنهم يكتبون لأنفسهم ؛ لتكن هذه الطائفة لم تعدم بعد حين الأنصار الذين رفعوها إلى المكان اللائق بها ؛ وقد فطنوا للنظرات العجلى التى لم يستطع ادراكها المعاصرون . وكأنى بذلك أعود بالمخيلة إلى بودلير والى رامبو والى ستاندال أيضاً الذى كان يكتب لعدد ضئيل من محبى أدبه ، ويقول بأن قراءه الحقيقيين لم تلدهم أمهاتهم بعد .. بل وأتخيل نيتشه ووليام بلاك ومكفيل الذين لم يكن حالهم بأحسن من حال الأولين . هذا وانى لم أذكر إلا الكبار

نشهد اليوم حادثاً لم يسبق للتاريخ مثله ، عظيم الأهمية ، لا تقاس به الأحداث ، ذاك هو النظام الجديد القائم فى روسيا السوفيتية ، ولست مبالغا إذا قلت بأنه عمل « نموذجى » ينسج على منواله ؛ إن بلادا يجرى فيها مثل هذا النظام تجعل الكاتب يتحسس بيئته ويتصل بقرائه اتصالاً مباشرا ، لا يدور حولهم كالتائه يفتش عن ضالته كما هى حالنا معاشر الكتاب ، فيستمد من الحقيقة التى تحيط به مادته ، ويستلهم منها أخيلته ، ويستمع إلى صداه بأذنه . إن بلاداً مثل هذه يؤدى فيها الأديب رسالته كما يجب أن تؤدى ، جديرة منا بكل اعجاب . بيد أن ذلك كله لا يفيد . إن الطريق كلها سليمة لا تعتورها الأشواك ، وكيف تجتنب الأخطار جميعها مادام العمل الفنى فى طبيعته ضعيف المقاومة ، قليل التأثير بادئ ذى بدء . ولعل الكلام عن مثل هذه الأخطار التى هى من طراز جديد ستحين له فرصة ثانية ، لقد رأيت فى النتاج الأدبى السوفييتى آثاراً أثارت منى كل اعجاب ، لكنها ما تزال بعيدة عن أن يتمثل فيها الانسان المنتظر ، الذى ما برح هذا الأدب يعمل على ايجاده ، وهو ما يزال فى

(١) الأسطورة تقول إن أنتيوس Antée بن جى (الأرض) اعترض هرقل فى طريقه إلى أطلس (الذى يحمل السماء على منكبيه) وقد وسوس اليه الشيطان بقتله فكان صراع طويل حتى فطن هرقل إلى السر الذى يستمد منه خصمه أنتيوس قوته كلما بدأت تواه أن تخور بوقوفه على الأرض فرفعه رفعة هائلة ثم أخذ يضغط على عنقه الغليظ العبل حتى شهق شهقة كانت هى شهقة الموت (المعرب)

مراحله الأولى يصور لنا أدوار التكون والتمخض والولادة ، وإني لشديد الأمل برؤية الآداب السوفيتية قد كبرت واشتد ساعدها ، فأصبح الكاتب في كنف الحقيقة الماثلة ، فاتحة له صدرها يضمها بكلتا يديه

إن الأدب الخالد الذي تقبله النفوس وتقدم عليه بشغف يتجدد في كل حين ، لاينقطع لسد حاجة وقتية تنبعث عند طبقة من الناس ، في وقت من الأوقات ، وعلى هذا الأساس ، فإن حكومة السوفييت لم تقتصر على طبع الآثار والمؤلفات التي جادت بها قرائح كتابها وشعرائها ، فإنها عنيت عناية فائقة بنشر أشعار بوشكين ، وتمثيل مسرحيات شكسبير ؛ ولم تقل قط بأن أدب كتابها مرسوم له الخلود ، ولا هي تستبعد أن يكون نتاج هؤلاء الكتاب صائراً إلى الزوال بزوال الحاجة التي دفعت إليه ، مادام الزمن لم يحكم حكمه عليه ، وإذا كان هنالك من شيء يمسخ الفائدة التي يمكن أن يجنيها الناس من قراءة الكتب وإنشاد الأشعار ، فما هي إلا أن ترسم لهم الأمثولة ويحدد لهم المغزى ، وفي التدليل الكثير على العظة التي تتضمنها الكتب ضياع لمسحة الجمال التي يتميز بها الأدب ، ويصبح بذلك ضرباً من ضروب الوعظ الجافة

ليس مما يضير القراء ألا يوفقوا كلهم إلى غاية واحدة ، فإن في استطلاعهم إياها في أجواء مختلفة فائدة لا تقدر ، وفي ذهابهم مناحي متباينة بعد عن أن تكون هناك سلطة يستهدون بها . هذا والثقافة كانت لجلاء الذهن وإطلاق الفكر قبل أن تكون عامل إرشاد وتهذيب

تتوجه أنظار المفكرين ، في هذا الزمن ، إلى انتشال الإنسانية من وهاد الاضطهادات التي تردت فيها ، وإني لا أقدر لهؤلاء المفكرين أن يظل الإنسان موضع اهتمامهم يوم يفلت من قيده وينطلق حراً شريفاً ، فلا يعنون به إلا خانعاً ذليلاً أو غراً جهولاً ، بل ولقد أسيغ على نفوسنا طول تحدثنا من البؤس وتغنينا بمحامده ومزاياه حلة من الخنوع والاستكانة لاتليق بها

جميل أن نحلم بمجتمع تتم نماؤه الأفراد ، وأجمل منه أن نوقن بقرب قيام هذا المجتمع ؟

ترجمة وتلخيص ماجد شيخ الأرض

٣ ـ الدكتور محمد إقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين في العصر الحاضر

« إن صوتي قد أوقد النار القديمة في بلاد إيران
ولكن العرب لا يعرفون شيئاً عن نغماتي الشجية »
(إقبال)

لأبي النصر أحمد الحسيني الهندي

بدأ الدكتور بقول الشعر في أول الأمر من نوع الغزل ثم باشر أنواع الشعر الأخرى مثل : « مثنوى » و « قصيدة » و « رباعى » و « قطعة » و « مسدس » فأجادها إجادة تخلب القلوب ، غير أن كمال شعره ليس في هذه الأشكال والقيود الظاهرية ، بل في ابتكار المعاني ، وإبداع البيان ، ودقة الفكر ، وسمو الخيال ، وحسن التركيب والتشبيه ، وقوة الكلام التي يشتمل عليها شعره . فأنت ترى كيف أن تلك الصفات أورثت التصوير حسناً ورونقاً في قصيدته « الأمنية » التي طلب فيها من الله أن يخرجه من ضوضاء هذا العالم ويسكنه محلاً هادئاً ذا منظر بهيج . قال في وصف ذلك المنظر :

« ... فلتكن (في ذلك المحل) الأشجار مصطفة في جانبين يرسم صورتها ماء النهر الصافي ، وليكن منظر الجبال فيه فتاناً إلى درجة أن يقوم الماء في شكل الأمواج لرؤيته ، ويمس الماءَ فرعُ الورد مائلاً كأن حسناء ترى وجهها في المرآة ، وعندما تحنّي الشمس عروس الليل تلبس الأزهار كساء ذهبياً مشرباً حمرة ... الخ »

وقال في وصف الحباحب الطائرة ليلاً في الحديقة :

« إن نور الحباحب يلمع في معمورة الحديقة كأن الشمع منور في محفل الأزهار ، أو نجمة قد جاءت طائرة من السماء ، أو شعاع القمر قد نفخ فيه الروح ، أو سفير النهار قد جاء في سلطنة الليل فكان خاملاً في وطنه وبرز في الغربة . أو زر قد وقع من قباء القمر أو ذرة قد ظهرت من قميص الشمس . إن في هذا القمر الصغير نوراً وظلمة فكأنه يخرج من الخسوف حيناً ويدخل فيه حيناً ... الخ »

إن الدكتور إقبال ليس بشاعر فقط بل هو مفكر وفيلسوف أيضاً من الطراز الأول ، وهذا الأمر يزيد شعره حسناً وجمالاً